ابتسامة النائم

نوري الجراح ّ

إلى راء شين زهرة الصبار

صوت
الأُفُقُ مِنْجَلٌ على حَقْلٍ. على كَتْرَتِنا
في الطَّلَقِ السَّاطعِ. في الهَواءِ. في مُنْعَكَسٍ ...
انْتَظِرْ، واسْنُدْ ركبتي المشقوقة
ولا تتركني أرى
وقَعَتْ عليَّ الحلكةُ، وكَسَرَتْ لوحَ ظهريَ
انْحَنَيتُ
لألتقطَ النَّيزكَ
لكنَّ أيديَ كثيرةً جَرّتني من الطريقِ
وتَقَاطَرَ عليّ إخوةٌ بابْتساماتٍ مَقْصُوصَةٍ، خِيفَةً؛ مُثيرةً للشَّهواتِ.
مَنْ أنا ؟

صوت
أَخْرَجَني من نَومتي فتى لاهٍ
ومشينا على رَصيفٍ مُتَعٍ مَيْتَةٍ

نوري الجرّاح، شاعر سوري يقيم في دولة الامارات

على عَقدين من السَّنوات، خَضْراءَ في شَمْسٍ تَتَرَنَّحُ
عَلامتي
دمٌ يَنِزُّ
من بُرجٍ هدَمَتْهُ أَصْواتٌ.
نَهبتُ الطَّريقَ
ووصلتُ الليلَ بمفردي.
والآنَ
أَقفُ ، وأَنْظُرُ شُبّاكاً عالياً. هنا
كُنتُ أَسْكنُ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ إلى الموعِدِ..
هذا هو بَيتي، وكلّ شَيءٍ، كلُّ شَيءٍ
قَبْلَ أَنْ أَرى جُثَّتي، بَعد حينٍ، على بلاطاتٍ جَلاها الضَوءُ.
ومُذْ ذاك أَنا حيٌّ ومَيتٌ يَتَسامَران:
الرُمَّانُ يَهذي في النَّومِ
والياسَمينُ يبتعدُ، ويَخافُ
وعلى ظِلالٍ باردةٍ جَلبةُ طارقي نحاسٍ
وضَوءٌ
في ليلٍ
وعابرون خرجوا في صلاةٍ سوداءَ ...
و
ذلك، كلّه
حرير أَشْعَلَتْهُ أَصواتٌ، ورَجّعه ماءٌ كان ملائكةً.

يا لطريق دمشق، نَصلُها بالخَواص من وراء الجَبل
محمولين على خَشَبٍ رَجَعَ به أَهلونَ
اقتتلوا آناءَ الّليل وأَطْرافَ النَّهارِ
مدّوا أَيديَهم الطَّائلَة إلى أَباريقَ،
شَربوا وتَهاوَوا وصاروا رُفاتاً
ولما تلقَّتْنا ،
يا لما رأينا:
في أثرهم وقف صبيٌّ ميتٌ
وهام جنودٌ تحتَ أقواسٍ تَصَدَّعتْ .

يالطريق دمشق
ساعة ينهضُ الجَمالُ من عَبَقِهِ ويتلقّى ضَوءَ النِّهايةِ.

صوت
أأَنْزلُ ثانيةً، وتكون لي أُحْتٌ، وجُرْفٌ أُدْفَعُ مِن عَليه
ويكون لي مَسْقَطٌ
ويدٌ تَدفعُ
يدٌ تتلقّى.
أأكون هناكَ في موعدٍ وأرى بين كَثيرينَ
أنْشَقُّ، وأتَلَقَّتُ، وأسعدُ بظلّي.
لَكَمْ شَقيتُ
لأظَلّ
مُبتعداً
وصوتيَ نَرْجِسٌ ميتٌ.

صوت
أأَخْرُجُ في عَراءٍ والقَمَرُ يَضربُ الأرضَ العالية
أتكون لي بُرْهةٌ. دمٌ يَنبِضُ في الأبيضِ
ويَمْنَحُ
إشْفاقةَ الفَجرِ
أأَصلُ وأكونُ حياةَ الرَجْفَةِ؛ مَطْلَعَها الشَّقِيَّ
بُكورَةَ الرائحةِ، قَبْلَ أنْ تَشيعَ.

ضَوْءٌ على الرُمّانِ
مُبْتَعِدٌ وخافتٌ
وفتى يُنَزِّهُ أُخْتَهُ، في الحُلمِ

وفي لمعةِ الصَّوتِ وهَرَبِ البَنَفْسَجِ
النَّائمون يَتَلَمَّسونَ حَريْرَ الطِّفْلِ
كَثْرَةٌ تَهاوَتْ في كَثْرَةٍ
حيثُ سَقَطَ صبْيَةٌ وسَقَطَ ياسَمينٌ كَثيْرٌ.

أيُّ برقٍ شَقَّ أجْسادَنا عَنْ ذلكَ الكَهْفِ
لنَنْزِلَ
بصُوَرِنا القَديمة..
كانت الأرْضُ بُكُورةَ الخَيَالِ وألْهِيةَ اللّاهي،
والزَّمَنُ يَهْفو إلى ما تَكَسَّرَ
ويَطفو على الرُّضُوضِ والكَدَمَاتِ، على الجُرْحِ في مَلابسِ العذراء،
على الصَّبي الهائمِ بحذائه الأبيضِ،
على المنولوج الطَّوِيلِ لرَجُلِ البارحَةِ،
على المرأةِ الزِّيْنَةِ. يُطيِّشُها هَواءُ، هي وعِطْرُها.

صوت
لنْ تَنْفُرَ قطْرَةٌ
لنْ يَقْطُرَ ساخِنٌ
ولنْ يَتَوَهَّجَ أوْ يُضيءَ دَمٌ، أيُّ دَمٍ
ولنْ يكونَ، هناك، على هذا المَيْلِ
ما يلهو ويَنْكَسِرُ
غير القامة العَليلة للعاشقِ، لمْ يَرَ، في الشَّاشِ
غَيْرَ عَيْنَيْه المقْلوعَتَين.
وما اصْطَحَبْتُهُ فيّ ليَمُوتَ.
قالَ
سَأكُفُّ عنْ تَناولِ السُّمِ في القَهْوةِ
على الرصيفِ الغَائصِ في جَريمةِ النَّهار؛
الوحلُ الملوَّنُ.
ما يَقْتَرُّ له فَمٌ ويُغري عابرةً في التَّقَيُّؤِ على طَرَفٍ
مِنَ اللَّيْلِ، جانبيّ ومَرْموقٍ ومُشْتَهى،
ومَحْسُودٍ عليه شُخُوصُهُ المترنِّحون
مِنْ:
تَدَفُّق الشَّر في اليَد والكَتفِ والعَيْنِ
وتَدَفُّقَ الخَيْرَ في اليَدَ والكَتفِ والعَيْنِ
ورَفيفَ الغَضَبِ في الدَّمِ،
وتلاشي الغَضَبِ
في الدَّمِ

نهارٌ يَتَصالبُ على شارعٍ يَتَصالبُ.

تعالَ معي
لأُريكَ
خاتمَ الطِّفْلِ.

نَحنُ نلتقي على أرْضٍ مَيْتَةٍ، بين مَوتى يَتَسامَرون.
والآن، على مُنْكَشَفٍ هائلٍ
الحَديدُ يَعجنُ السُّرعة والأنوارَ
والأرْواحُ أُفُقٌ يَهُبُّ
نَنْظُرُهُ
وأيْدينا على أيْدينا، فنحنُ في السِّينما:
هُيامٌ، وأرْياشٌ تَتَساقطُ.

يالَلثَّلْج
حلكةٌ تَذْهبُ في حلكةٍ.

صوت
أَسْقُطُ حَيثُ سَقطَتْ العاصفَةُ
وإذْ أنْهَضُ لا أجدُ إلاّ الأشْياءَ
فأنْهَضُ ولا أسْتَطيعُ أنْ أقْتَلعَ قَدَمي مِنَ الأرْضِ.

أكْبَحُ مُخَيِّلَتي لأتَمَكَّنَ مِن تَدْمِيرِ يَدي وكَتفي وعَيني،
أهْوي على صوري وهي تَتَكَرَّرُ..

تَشْكيلُ النَّهارِ من خفَّة النَّهارِ
وخفّةِ النَّهارِ مِنَ ألَمِ النَّهارِ؛

لَهْوٌ في عَشيّةٍ تُنَقِّرُها سَكاكِينُ لامِعةٌ، تَتَنادَى
عنْدَ مَداخلَ تَضجُّ برائحةِ العَدَمِ،
بكاءُ أصْواتٍ في المَمْشى، والحائطُ يَمْتَصُّ ظلاً طويلاً

وأراهُ قَبْلَ أنْ أنْفُذَ إلى الجِهةِ الأُخْرى
يَرْشَحُ دَماً، قبل أنْ أرْتَجَّ، كُلِّي، مِن الضَّجةِ العاليةِ
كَبُرَتْ على سَلالِمَ عَميقَةٍ
وطَوَتْ، هناك، قامات مرحةً كانتْ تَصْعَدُ
لتَتْرُكَ
مَوْضِعَها
كِسَراً
جارِحَةً.

صوت

أخْرُجُ وأمْشي على كسور
تَلْمَعُ، وتناديني
تَلْمَعُ
وتُطلقُ أشعَّتَها؛
تَنْفُذُ في طولي رَشْقَةُ سِهامٍ
وما أخْطُفُ قدمي مِن هذا المُنْزَلَقِ
ما أقوى..
لكنَّني أصْعَدُ وأحِسُّ أنني أنْتَشَلُ
في شَبكةٍ
أنا ودمي.

صوت

هكذا وجَدْتُ نفسي في ذلك المساء
بين فتيانٍ قَصّتْ ألسنَتُهُم كلماتٍ وكلماتٍ وكلماتْ
وهامَ على رَفيفِ قلوبهم المعطوبة فراشٌ أبيضُ..
وطَوالَ الَّليلِ كان الَّليلُ يَرتطمُ في الأعالي.

والآن شتاءٌ موحِشٌ،
برقُ أفكارٍ، قَصْفُ كلامٍ في وميضٍ،
وحْلٌ وأسلاكٌ شائكةٌ، وصُفوفٌ مِن المقنَّعين.

صوت

أنزلُ
وتَنْزِلُ
في ضَجّةِ المطر ..
المدينةُ السَّماءُ المصقّحةُ، السماء الصلبةُ، السماءُ
ساعة يتكسَّرُ جدارُ النَهرِ
وتَتَسَرَّبُ الظلمةُ مِن شَقائقِ الصَّخرِ

المدينةُ الزورقُ اللاهي، المرأةُ الميْتَةُ في الزورقِ
يُنَزِّهُها المهاجرونَ. السكاكينُ اللامعةُ في ضوءِ الحُلُمِ
حبّاتُ الدَّمِ وهي تَقْطُرُ في المرآةِ.
السَّماءُ
في مُنْعَكَسٍ
والأرضُ صورتُها ، السَّماءُ
الملطَّخَةُ بألوانِ الفنّانِ، بعربدته السَّاطعةِ،
قبل نزوله ورايَته إلى المقبرة.
المدينةُ جنوب النهر، المدينةُ شمال النهرِ
حَبَّةُ الأناناس الصَّخَريةُ على الجسر
رجعَ بها الفيلقُ الموسيقي مِن مصْرَ
أَسْمَعُ صَوتَ النرجس يَشُقُّ المخْدَعَ
وإيزيس في السَّاعاتِ والألوانْ.

صوت

شتاءٌ موحِشٌ، دونَ أنتَ..
صخرةٌ تَرْبُضُ على مُخَيِّلتي،
على مُسْتَقَرٍّ،
على سَفْحٍ مِنَ الأعشابِ الصَّفراء.

يالطريق دمشق، يا لأجنحةِ النَّومِ،
أَمشي
وما أُحِسُّ..
ماتَ النَّهارُ، وماتَ الخوفُ.

صوت
تَنْزِلُ
وأنزَلُ
كَمْ مَرّةً أرسلَتْني صورتي أفْتَحُ لكَ البابَ؟
أُخْفيكَ
وأتَمَشّى في المُنْصَرَفْ.
تَنْزِلُ وأنزلُ
النُّورُ الخَفِيفُ يُلهِبُ الظِّلالَ
والسلَّمُ
درجةً
بَعْدَ
درجةٍ
يُريدُ أنْ يَطولَ.

يناير كان يَرى.

وفي الخُطوة إلى البابِ الفراغُ يَنْدَفعُ ويَصيرُ أوْسَعَ
والهاويةُ تَشْخُصُ، ونحن نَنْزِلُ
ونَفْتَرقُ.
إلى الأَبدِ.
نتوارى
ونذهبُ إلى الموعدِ،
ولا
نَصِلُ
إلى
الأبدْ.

القارئاتُ، بجواربِهِنَّ الشفّافة،
الحاملاتُ الأسماءَ، المسرعاتُ إلى الفردوسِ،
ينظرننا بشغفِ مَنْ نامَ ولمْ يَنهض..
ونحن نَبْلُغُ معاً ... كيف بَلَغْنا معاً كلّ تلك المناطق؟
وكنا

نَنْزِلُ
لنستعيدَ عَقْرَبَ السَّاعةِ
ونعيدَ إلى الزَّمنِ الكبيرِ العقربَ الكبيرَ
وإلى الزَّمنِ الصَّغيرِ العقربَ الصَّغيرَ.

صوت
بمَ أثقلتِ يدي؟
النورُ موحِشٌ، والأزهارُ موحِشةٌ في يناير
خَرَجْتُ
وناولني القدَرُ فأسَهُ
وتركني أضْرِبُ
طوالَ اللَّيل.
وطوالَ اللَّيلِ كنتُ متروكاً في هَواءٍ أسودَ.
أنا لستُ أنا. وهذان الجناحان لا يعملان.
سأدفعُ، طَوالَ اللَّيلِ، بشغفِ الذي ماتَ ودُفنَ مراراً
أبدّلُ في الغُرَفِ
إلى
أنْ
أجدَ
ذلكَ الباب.

صوت
تَنْزِلُ
وأنزِلُ
ركبتاي ماءُ الخَوفِ
عندما الْتَمَعَتْ روحٌ في التُّراب، وهَوتْ ورقةٌ..
كان سَريرُ الأمسِ، برِفقٍ، يتلقى
لأولدَ في الماضي
ليضيءَ عينيّ زهوٌ
وأذهبَ
بأزهارٍ مَيْتَةٍ بين الجِّبال.
لأني لمْ يُنظر في أزهاري

ولمْ أكنْ مَررتُ
لأنَّه ما تَلَفَّتَ أحدٌ
ولمْ
يكنْ أحدٌ
هناكَ
الفراغُ تَقبَّلني.

صوت

ليس شاقاً، وليس حَيياً، هذا الأرقُ في الغُرف
فَكِهٌ ومَريرٌ، كالتُّفاح يَبرقُ في قصَبٍ حائلِ اللَّونِ،
دونما إقبالٍ..
وقلتُ له:
هُزّ رَقْدَتي
إلهي..
قلت له:
رجْرِجْ سقوطيَ في سَكينةِ النَّهارِ، واتركني أنام في منامي
لأنني حَمَلْتُ النِّعمَةَ مِن يومٍ إلى يومٍ، وفَرحتُ بالألم.
وفي الطُّول الفارغِ للحُجْرَةِ وسَكينَتِها
مَدَّدتُ رجائَي مُبللاً في قُماشٍ فقيرٍ مُبَلَّلٍ..
كانت الشَّمْسُ تَرْتَجُّ والرَّنينُ يَفلِتُ مِنَ المِعْصَمِ
ويَتَساقطُ في الأشعَّةِ
حلقاتٍ
حلقاتٍ
دوائرَ تَتَّسعُ لما يَتَمَوّجُ في السَّمعِ،
وتَقْطُرُ في أزرقَ تواريه بوحَشيَّةٍ خُضْرَةٌ خائفةٌ.

أيُّ نَهارٍ
هذا
يَقْرُكُ كعْبَهُ في الحَديقةِ
والضُّيوفُ يَرْفَعونَ الحجَرَ
لينظروا العَقْرَبَ الصَّغيرَ الحائرَ.
لا تكفيني شَفَقَةٌ هامِسَةٌ

ولا عُشْبٌ صَارِخٌ
لأنَّ خاطفاً قصَّ الرَهاقة
وتَرَكَ البُرودَةَ تَتَمَوّجُ، والنَّومَ يُخَدِّرُ النَّائمَ.
أُميلُ بعنقي
وأتْرُكُها مَلويَّةً
وأرى عَينيّ
تَسْقُطان
حَيْثُ سَكَنَ النَّهارُ
قَبْلَ أنْ يَنْتَفِضَ
قَبْلَ أنْ تكونَ لي يَدٌ غَيْرُ يدي التي هَمَدَتْ.

صوت
الشَّوكُ يملأُ يَدي ويملأُ الجَبَلَ
متى بَدأَتْ حَياتي؟ متى أتْمَمْتُ ما بدأْتُ؟
لا الشَّمسُ في مُنحدرٍ، ولا القمرُ في مُنْحَدَرٍ
العنكبوتُ يَنْسُجُ البصرَ، ويملأُ الغارَ بالكلماتِ
حِنْكةُ مَن ظلّ يقفُ للسَّائرِ في مرمى الفأسِ
ليكون في تمام السَّاعةِ
لا قبل ولا بعد.
وليُشبَّه لهم فما له صورةٌ.
مَتى أُتمُّ ما أنْهيتُ.

الرُمّانُ يَهذي
الرُمّانُ يَهذي
والياسَمينُ يضيءُ مَقْتَلَةَ مَنْ قُتِلَ.

صوت
حَلَمْتُ أنّي نُمتُ كثيراً
وكنتُ هناكَ
أمشي تحت سورٍ، ومعي نايٌ، وشَعْبي هواءٌ يلهو
ولا
قنواتِ

أعلى مِن تلكَ التي سَطَعَتْ عليها الشَّمسُ
ولا أشجارَ أهنأ
لا كلامَ يترجّع..
سوى أنَّ الهواءَ كان يَتَحَدَّرُ في الحِجارةِ.

حَلَمْتُ أنّي هُناك
ولنْ أعودَ
ولنْ أكونَ أطْولَ
ولنْ يُبَرّحني ألمٌ
ولنْ يكون لي كلامٌ أقوله
ولا شهودٌ يُحصونَ عليَّ
لا أصدقاءُ يُحبونني، ولا أطفالٌ يناديونني باسمي.

من أعطاني هذا المشى الطويلَ، ومَرَّرَني فيه كالهواءْ؟

حَلَمْتُ أني رأيتُ إلهي
لكنَّ قوّةً خَبَطَتْني على المشى
لأتَنَزَّهَ اليومَ على الأثرِ، وأنظرَ الشَّقائقَ في الأرضِ؛
دمَ الماضي
وحياتيَ الباقية بعدَ لأيٍ.

وفي الخَليطِ والدَّويّ، قَبلما ، وبَعدما :
دويٌّ قَبْلَ النَّومِ، ودويّ بَعْدَه،
دويٌّ في الحُبِّ، دويّ في العَسيلِ،
دويٌّ في صُوَرِ السَّنةِ،
في المطالع،
في الزَّحفِ على أخريات النَّهار ...
وفي تَلقّتِ المصادفةِ كان الصَّمْتُ
يُضمرُ
ويُمَهّدُ
لمرورِ مَنْ مرَّ.

خُذِ الأنفاسَ واصرفها في الأرخصِ
ولاتتركني
نَهْبَ هذا الشغفِ، عند الفأسِ.

صوت

حَرّكْتُ قَدَمي في خَلاءٍ وراءَ مَنْزِلٍ
لا أحَدَ هُنا ولا في الدّاخلِ
لا أحَدَ ولا شَيءَ..
ولا
نَهار
أطول
لُمْنصِتٍ
من هذا الشَّاهقِ الّذي سَطَعَتْ عليه شَمْسٌ خَرِقَةٌ ورَمَقَهُ انْهيارٌ صامتٌ.

اليومَ، أيضاً، وصَلتُ ومعي مفاتيحُ بَطُلَتْ.

صوت

لو رُحْتُ دمَشْقَ،
لو تمكَّنْتُ ورحتُ، ولمْ أغادر إنكلترا
لو فَتَحتُ باباً وعَثَرْتُ على الصَّيف كلّه وراءَ بابٍ
والأُبهة كلّها.
الآن، هنا، وفي كل مرة، إنكلترا
بدمشق ومن دونها..
وبإنكلترا، كقطعة رماديَّة ولها طولٌ
ومَلْمَسٌ يَصْعَقُ الأطرافَ.
ولا فَكاكَ أبداً
إنَّما
بلا يأْسٍ ولا رَجاءٍ
يَنْهَضُ النَّهارُ ويَتَهاوى مِن طولِهِ.

لو رُحْتُ وكانتْ دمشق، وكان يَنْقُصني ذلك، وتَمَّ، وكانَ لي..
الزَّمانُ الشّاهقُ يَهوي بالآلافِ

وتَحْتَ قطعة الرُّخامِ الصائحةِ
يَتَمَدّدُ الّذي قُتِلَ
ويَتَمَدَّدُ الّذي قَتَل
ويَمُرُّ بهما القاضي بقامته المهيبةِ، والشّاهِدُ بملابسه الخَرْقاء
ويَمُرُّ الطِّفلُ الّذي عاش يَتيما ومَرَّ بهم،
والرّاويةُ الّذي رَوى
طوى البَحرَ بالأُقْصُوصَةِ
وكَتَبَ ما رأى،
هَرَبَ، مراراً، إلى الأمامِ، وسَبَرَ الضَّجَة طولا وعرضاً
ثُمَّ رجعَ وتمدَّدَ وقال أنا الكاتبُ النَّائمُ
وطَوالَ الوقتِ كان يُشْبِهُهُم،
وكان مَيْتاً
كالزَّهرةِ
في يَدهِ.

لو عَثَرْتُ على هذا البابِ
ووجدتُ الزَّمانَ في حُفرةٍ
ولَهْوَ ما كان نُزهةً، بقايا أصواتٍ، تَرَمَّدَتْ،
أثراً
من عَجَلَةِ الّذينَ اسْتَعْجَلوا
قَبْل أنْ يَصِلَ القِطارُ؛
بوقُهُ القديمُ
في حُفرةٍ
وعلى امْتداد السَّماء، مكفهرةً، صَهيلُ الحصانِ..
لكنه، الآنَ، في الصُّورةِ.

دمٌ جديدٌ يَدْفُقُ في كتفي.

صوت
غَطِّني،
واتْركِ القماشَ يَضْحَكُ حتى ينعسَ
لقَدْ ذَهبْتُ لأقْطُفَ الرُمّان

وهَلَكْتُ
ولا موعدَ لي مع أحد.
أرْقُدُ، وما أحملُ أزهاراً.

ولما عَبَرْتُ بروحيَ النَّحيلةِ
صرتُ لسانَ الشَّمعة
صرتُ السّاعة خائفةً، وصرتُ رَمْلَ الضُّحى.
أيامي صورٌ خفيفةٌ: الشَّمسُ ترتفعُ
والشُّباكُ
يَهُبُّ ويَتَفَكَّكُ.

5 Newnham Road 1990
90 Bulstrud Avenue 1997

من ديوان قيد النشر بعنوان «طريق دمشق»